العثمانيون المفترى عليهم

● هل يمكن ان تحافظ دولة على كيانها طوال ٦ قرون وهي بغير حضارة ؟

● قصور العثمانيين عرفت « الحرم » اما « الحريم » فهى قصة ابتدعها الاوربيون

● حتى عام ١٧٠٠ ملك العثمانيون اقوى مدفعية والطوبخانة كان يحملها ١٢٠٠٠ جمل !

● لماذا لا نحاول فهم حضارة العثمانيين من وثائقهم قبل القاء الاتهامات جزافا ؟

● دعا الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى استاذ التاريخ بجامعة الكويت الى ضرورة اعادة تقييم الحكم العثماني في العدد ٢٣٥ من العربي . ورد عليه الدكتور نور الدين حاطوم ـ استاذ التاريخ أيضا بالجامعة ذاتها ـ بمقال تضمن عدة ملاحظات على سنوات الحكم العثماني للعالم العربي .

وهذه الدراسة بمثابة استجابة لدعوة الدكتور عبد الرحيم مصطفى ورد على رد الدكتور حاطوم وقد كتبها للعربي احد الباحثين المتخصصين في التاريخ العثماني ، وهو الاستاذ محمد حرب ، الذى كان اول من قدم مذكرات السلطان عبد الحميد باللغة العربية .

ان الطريق الى تقييم الحكم العثماني يبدأ بخطوة هامة وطبيعية هي :

محاولة فهم العثمانيين . ولكي تنجح هذه المحاولة وتحقق اهدافها ، فينبغى أن تتوفر للباحث ثلاثة عناصر هي :

فهم العثمانيين
مدخل الى اعادة تقويم الحكم العثماني

● أولا : نشر وثائق الدولة العثمانية : وهذه مكتوبة بلغات عديدة أهمها التركية والعربية

واللاتينية . هذه الوثائق محفوظة فى دور حكومية خاصة ممتدة فى أوربا وافريقيا . فى أوربا : فى بلغراد وبوسنه سرايي وبودابست وفينا وصوفيا واستانبول . وفى اسيا : البصرة وبغداد ودمشق وفى افريقيا : القاهرة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر . وقد عددت هذا دور المحفوظات الرئيسية فقط . وربما يكون هناك دور محفوظات أو وثائق عثمانية فى منطقة القرن الافريقى حيث كانت تحكم الدولة العثمانية ، وقد يكون هناك أيضا مثل ذلك فى صنعاء أو عدن أو الحجاز مما لا نعرفه . اذكر بهذه المناسبة ان دور المحفوظات فى استانبول وحدها تضم (١٥٠) مائة وخمسين مليون وثيقة ، لم يدرس بل لم يصنف منها الا العدد لا يفصح عن نفسه خجلا . وقس على ذلك كل هذه الدور المذكورة . لا ننسى فى هذا الخصوص الاقسام الخاصة بالوثائق العثمانية فى دور المحفوظات فى مختلف انحاء العالم : موسكو ولندن وباريس وغيرها .

● ثانيا ـ نشر المخطوطات : وهذه منها ما هو عام يفيد فى الكشف عن تاريخ منطقة كبيرة المساحة تحوى وحدات ادارية عثمانية فى داخلها اذكر على سبيل المثال : رحلة الطبيب العثماني قول اغاسى « عبد الحكيم » وهي رحلة رسمية استهدفت تقديم تقرير عن الحالة الطبية والصحية فى منطقة الخليج والجزيرة العربية بما فى ذلك اليمن وايضا فى طرابلس الغرب وبنغازى . وكانت فى أواخر العهد العثمانى فى البلاد العربية . ومنها ايضا « سليم نامه لر » المكملة والمتممة بل والمصححة لابن اياس ، وهي تقدم فهما هاما لتاريخ حملة سليم الاول على الشام ومصر والحجاز ثم « غزوات نامه لر » التى تساعد مساعدة فعالة فى الكشف عن تاريخ منطقة الخليج والجزيرة العربية .

يدخل فى نطاق هذه الفقرة رحلات الضباط العثمانيين فى السودان واليمن والحجاز وليبيا . وتقارير هيئة اركان حرب الجيش العثماني عن الوضع السكاني والقدرات العسكرية لدى الشعوب بل والقبائل العربية فى مختلف ارجاء الولايات العربية . وتقارير المخابرات العثمانية عن بعض المسائل الهامة فى البلاد العربية مثل التقرير السرى الذى كتبه الضابط العثماني يوزكاشى اركان حرب على عن حركة احمد عرابى باشا ، وكان على قد دخل مصر سرا أثناء بدايات الغزو الانكليزى . والتقارير العسكرية الادارية مثل تقرير محمد امين سامي باشا عن مشكلة تقسيم اليمن الى قسمين ، ثم تقارير وزارة الخارجية العثمانية عن المشكلات بينها وبين وزارات خارجية الدول الاوربية حول المناطق العربية مثل تقرير الخارجية العثمانية عن البحرين ، وغير ذلك الكثير .

ومن هذه المخطوطات ما يختص باحداث معينة لمنطقة عربية محدودة : مثل تاريخ عبد الكريم ابن عبد الرحمن عن مصر العثمانية وتاريخ سفر البصرة وتاريخ سفر نهر ذياب وتاريخ عزت ، ذلك التاريخ المكمل لتاريخ الجبرتي والمصحح لمعلوماته .

● ثالثا : نشر القوانين العثمانية للبلاد العربية مثل : قانون نامه مصر ، قانون نامه بغداد ، قانون نامه طرابلس الغرب ، أقول أيضا فى هذا الصدد ان الحديث عن « اثقال العثمانيين » للعرب « بالضرائب » لا ينبغي ان يكون قبل نشر هذه القوانين ومتابعة تطبيقاتها من خلال الوثائق . ففي نشر هذه القوانين القاء الضوء الساطع الذى يكشف التاريخ الاقتصادى العربى فى العهد العثماني ، كما من شانه أن يحقق النتيجة ذاتها بالنسبة لدقة العثمانيين فى اهتمامهم بالنظم العدلية وبالتقنين .

أقول ما دامت هذه الامور ما زالت مجهولة ، فان اثارة دعوة تقييم « الحكم العثماني » لابد وان تكون صعبة الى درجة يفطن اليها كل ذى ادراك تاريخى ، بل وحتى المثقف العادى .

وما دمت ارى هذا ، فانى ارى ايضا ان نتجه بالتالي ـ كخطوة اولى على درب دعوة الدكتور عبد الرحيم مصطفى من فتح ملف الدولة العثمانية ـ الى فهم العثمانيين تشكيلا ونظما وحضارة والى فهم طبيعة العثمانيين ، مراعين المدة الزمنية التى تحدث عنها الدكتور نور الدين حاطوم .

فلنر ماذا يقول الدكتور نور الدين حاطوم عن الحضارة العثمانية .

طبيعة الدولة العثمانية

يقول الدكتور حاطوم : «ولكن ما هي الحضارة التى كان عليها العثمانيون ايام الفتح ؟ لا شيء وفاقد الشيء لا يعطيه . لم يكن للترك دين خاص

ولا حضارة خاصة . وكل ما عندهم لغتهم التركية وقد أخذوا عن العرب الدين الاسلامي والكتابة العربية وتركوا العرب وشانهم بعد أن اثقلوهم بالضرائب من كل نوع وحكموهم حكما عسكريا » (العربي ، العدد ٢٣٥ ، ص ٥٧ / ١)

لن أناقش مسالة خصوصية الدين لقوم ، ولا اخذ الترك الحروف العربية عن العرب ، ولا عن الضرائب ، فالضرائب فى العهد العثماني مقسمة شرعيا وعرفيا ، منها ما هو ثابت ومنها ما هو مؤقت ينتهي بزوال سببه (انظر فقرة القوانين العثمانية من هذا المقال) ، (قارن بين النظام الضريبى فى الدولة المملوكية وتطبيقاته فى مصر وشدته فى ابن اياس وغيره وبين النظام الضريبى العثمانى وتطبيقاته فى مصر فى « قانون نامه لر » ، والعدالة العثمانية فى البكرى والاسحاقى على سبيل المثال)

لنترك الحديث عن هذا ، فتلك مسائل طويلة ليس هنا مجالها ونقتصر على الحضارة العثمانية حتى ايام الفتح (يقصد الدكتور حاطوم الفتح العثماني للبلاد العربية)

لنتخذ لذلك حدا تاريخيا هو مقتل الغورى فى مرج دابق ثم دفن العثمانيين لراسه التي عثروا عليها عقب المعركة ـ امام حلب بناء على امر سليم .

وطبيعة الدولة العثمانية ـ كما يعرفها المؤرخون ـ « عسكرية ـ جهادية » ، فقد بدات امارة ثغر ثم تحولت الى سلطنة ثم الى خلافة وسلطنة . لقد بدا التاريخ العثماني فى الربع الاول من القرن الثالث عشر الميلادى . كانت تسود العالم كله وقتئذ رهبة وذعر من الامبراطورية المغولية التى اقامها جنكيز خان ، وكان هذا قد استولى على شمال الصين ثم بدا زحفه نحو تركستان . كلنا نعرف انه لم تكن هناك قوة بشرية آنذاك تستطيع الوقوف امام جحافل جنكيزخان .

كان هؤلاء المغول على دين الشامانية . وكان سكان تركستان اتراكا مسلمين فى ذلك الوقت . كان يسكن فى منطقة جنوب صحراء قره قورم فى آسيا الوسطى ما يقرب من ٧٠٠,٠٠٠ خيمة بدوية يسكنها حوالي نصف مليون مسلم تركى . ضم هذا الجمع البشرى عشيرة تسمى « قابى » هربت كل هذه الكتل البشرية من مواطنها خوفا من الزحف المغولى . وكذلك فعلت عشيرة «قابى» التى اتجهت نحو الاناضول . كانت عدتها ٤٠٠ خيمة يسكنها حوالى ٤,٠٠٠ شخص . وفى الاناضول ساعدت هذه العشيرة السلطان السلجوقى علاء الدين حاكم قونيه فى احدى معاركه مع خوارزم شاه جلال الدين . فاقطع علاء الدين العشيرة قطعة صغيرة من الارض على حدوده مع بيزنطه (ثغر فى الاصطلاح التاريخى الاسلامى) . وكان الرئيس الثالث لهذه العشيرة وهى فى مكانها الجديد بآسيا الصغرى هو الامير فخر الدين عثمان الذى سميت الدولة العثمانية باسمه .

يقدر المؤرخون مساحة الثغر الذى اهداه السلطان السلجوقى لعشيرة قابي بنحو يتراوح بين ١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ كم تقع فى ملتقى ولايات اسكيشهر مع بيله جك وكوتاهيه فى تركيا اليوم .

وكانت امارة الثغر هذه بحكم الموقف التاريخى والموقع الجغرافى عسكرية ـ جهادية كما قلنا ، وعليه فقد استطاع الامير عثمان ان يوسع ثغرة على حساب القوى البيزنطية الى مساحة تقدر بـ ١٦,٠٠٠ كم ، ولم يكن عثمان مستقلا ، فثغره تابع لقونية ، وقونيه كانت تابعة لتبريز ، وتبريز كانت تابعة لبكين حيث كان يحكم قوبيلاى خان حفيد جنكيزخان .

ثم تولى اورخان بن عثمان الذى أرسى دعائم حضارة عثمانية استمدت عناصرها من التراث السلجوقي وحضارة السلاجقة ، والسلاجقة كما نعرف اتراك مسلمون . فتح اورخان ازنيق (كانت هذه المدينة قبل ذلك مركزا علميا مسيحيا يلي استانبول ـ وكانت بيزنطية وقتها ـ مباشرة فى المكانة الدينية والعلمية المسيحية) فانشا بها جامعة اسلامية كبيرة ، وفى عهده تم تكوين جيش نظامي لا عمل له الا الحرب وبدأ الطرز المعمارى العثمانى فى الظهور وتم ترتيب الديوان الذى يساعد الحاكم فى تصريف امور الرعية (انظر لاروس ماده اورخان غازى ، الطبعة التركية ـ ومحمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية) .

بعد أورخان تولى مراد الاول فاتح صوفيا (عاصمة بلغاريا اليوم) فاعلنته الكنيسة « عدوا لعيسى » وعليه فقد اتحدت ضده كل الجيوش الاوربية ، ومات مراد هذا فى الحرب . وترك لابنه بايزيد امارة مساحتها ٥٠٠,٠٠٠ كم ٢

(انظر الموسوعة التركية ، مادة الامبراطـورية العثمانية) .

بايزيد الصاعقة

قلت ان طبيعة امارة الثغر العثمانية عسكرية ـ جهادية « طورت مساحتها خلال ١٠٨ سنوات وفى عهد ٣ من امرائها من ١٠٠٠ كم ٢ الى ٥٠٠ر٠٠٠ كم ٢ . واقصد بذلك الدلالة على سرعة الانتشار مع الصمود فى وجه اوربا المتحدة فيما سمى فى الاصـطلاح العثمـانى (خاجني سفر لر) أى الحروب الصليبية .

الى أن جـاء بايزيد الصاعقة الذى نعـرفه نحن العرب باسم بايزيد الاول ـ وهـو بايزيد الذى اسهب فيما بعد فى وصف اهتمامه بالنظم العدلية وتطبيقاتها المؤرخ البكرى ـ واستطاع بايزيد عـن طريق السلطان برقوق المملوكي ان يحصل من الخليفة العباسى فى القاهرة على لقب سلطان فاصبحت الامارة العثمانية سلطنة ، رسميا ، وكان هذا كما يقول المؤرخ التركي شهاب الدين تكين داغ « تتويجا شرعيا لواقع العثمانيين » .

ثم جاء تيمورلنك وحـارب بايزيد فى واقعـة أنقره (٢٨ يوليو ١٤٠٢م) وهـزم بايزيد بـل واسر ثم مات فى الاسر من اسر من اولاده وهرب من هرب ، ثم ادعى كل من اولاده السلطنة لنفسه وحارب كل منهم الاخر الى ان انتصر محمد جلبى (الاول) وبدأ يجمع شمل دولة انفرط عقدها واستقلت كل ادارة فيها عنها .

حارب محمد الاول الجميع وانتصر ، وبدأت عملية توحيد اجزاء السلطنة ، وما ان استغرت هذه العملية قليلا حتى قامت ثورة الشيخ بدر الدين بن قاضى سماونه المشهورة ، وهي ثورة باطنية قامت بتاييد أمير جنوب رومانيا المعادى للعثمانيين . وكان للشيخ بدر الدين مساعدان قويان احدهما مسـلم وهو بيرقليجه مصطفى والآخر يهودى وهو طورلاق كمال . وكانت الثورة قوية حتى خيف على الدولة منها ، لكن محمدا انتصر ، وعادت الدولة العثمانية على مساحة تقدر ب ٨٦٠ر٠٠٠كم٢ بعد أن لم تكن .

محمد الاول هذا يعرفه التاريخ العربى بأنه أول سلطان عثماني يرسل الصرة الى الحجاز ، والصرة هدية نقدية سنوية اعتاد سلاطين آل عثمان ارسالها الى الحجاز لتوزع على اهالي مكة والمدينة .

ثم تولى مراد الثاني الذى حاصر بلغراد ستة اشهر كاملة (فتحها العثمانيون بعد ذلك عام ١٥٢١م) وبعده تولى محمد الثانى الذى نعرفه باســم الفـاتح والذى بدأ به ـ فى العرف التاريخي الدولي ـ العصر الحديث . ثم بايزيد الثاني ـ الذى كان معاصرا لمحنة المسلمين فى الاندلس ـ ثم سليم الاول الفاتح العثمـانى للبلاد العربية ، والذى أصبح أول خليفـة عثماني ، وبذلك اصبحت الدولة العثمانيـة خلافة وسلطنة .

وعندما مات سليم الاول بعد حكم قصـير دام حوالى تسع سوات كانت مساحة دولة الخلافة العثمانية قد بلغت ٦ر٥٥٧ر٠٠٠ كم٢ موزعـة كالآتي : فى اوروبا ١ر٧٠٢ر٠٠٠ كم٢ ، وفى آسيا ١ر٩٠٥ر٠٠٠ كم٢ وفى افريقيا ٢ر٩٥٠ر٠٠٠ كم٢ (انظر تاريخ تركيا ، الجزء الخامس) .

وخطب لسليم الاول فى جوامع دمشق والقاهرة باعتباره خليفة وضربت النقود باسمه باعتباره سلطانا . (انظر سليمنامه لر ومقالة شـهاب الدين تكين داغ التي تحمل نفس الاسم) .

وتولى سليمان بن سليم المعـروف بسليمان القانوني (لاحظ ما فى اللقب من دلالة حضارية). وتعاقب من بعده السلاطين والخلفاء الى آن انتهت الدولة العثمانية وقامت على انقاضها دول عديدة منها : تركيا والبلاد العربية ودول البلقان والقرن الافريقي .

لقد قامت امارة الثغر العثمانية (المستقلة) عام ١٢٩٩ م وانتهت « السلطنة » عام ١٩٢٢ م ، وبدأت الخلافة العثمانية عام ١٥١٧ م وانتهت عام ١٩٢٤ م .

وهنا يعنى ان العثمانيين استطاعوا ان يحافظوا على وجودهم طوال ستة قرون وربع قرن . فهل يعقل أن تحافظ دولة على كيانها كل هذه المدة اذا لم تكن ذات حضارة ؟ .



محمد الفاتح

قصور العثمانيين والاوروبيين

يقول المؤرخ الفرنسي رين جروسيه وهو واحد من اكبر مؤرخى آسيا ، فى كتابه « وجه آسيا » الذى صدر فى باريس عام ١٩٥٥ م : « أن عملية تصفية الامبراطورية الاسبانية بدأت بموت فيليب الثاني عام ١٥٩٨ م ، وانتهت بمعاهدة اوترخ عام ١٧١٣ م أى خلال قرن من الزمان . اما تصفية الامبراطورية العثمـــانية فقد بدأت بمعاهـدة كارلو فجه عام ١٦٩٩ م وانتهت عام ١٩٢٠ م أى خلال ٢٢٠ سنة » أى بعد قرنين وربع تقريبا . ونشر لورد كيزوس فى مجلة Books and Bookmen عـام ١٩٧٣ م ما ترجمتـه : « آن الامبراطورية العثمانية كانت فى ضخامة الامبراطورية الرومانيه حيث كانت تساويها تقريبا من حيث المساحة ، لكن الامبراطورية العثمانية حافظت على وجودها فى ضـعف المدة التي احتاجتهـا الامبراطورية الرومانية فى هذا الشأن » .

نأخذ قصر طوب قابو كمثال على قضية بذخ السلاطين العثمانيين ، فهذا القصر هو رمز الحكم العثماني ومركز حكم الامبراطورية العثمانية . والزائر له يدهش من بســاطته فهو مقام على مساحة ٦٩٩٫٠٠٠ م٢ (٧ر٠ كم٢) وقد أسس ليسع ٤٠٫٠٠٠ شخص بما فى ذلك مدارس القصر السلطاني التي تعد العلماء والضبـاط والخبراء العسكريين وبعض فرق الجيش والحرم (والحرم يعني المحرم وهم ما لا ينبغي لاجنبي ان يراه أى زوجة السلطان وبناتـه حيث تقـوم الخادمات بخدمتهن ، أما الحريم كما تصـوره المصـادر الاوروبية جيدة الخيال فلم يعرفه سلاطين هذه الدولة) . طوب قابي أو طـوب قابو (ويكتب بالشكلين) ليس بمبنى فخم من قطعة واحدة كما هي القصور الملكيـة فى أوربا ، لأنه عبـارة عن اجنحة واروقة بسيطة احفل ما فيها مكتبة القصر المشهورة الآندوليا بمخطوطاتها العربيةوالفارسية النادرة القيمة . وليس فى قصور العثمانيين ما يضارع قصر ملك اوربي فى حينه ، وتواضع قصر يلديز امام قصر أى امير اوربي معاصر له ؛ له دلالته ايضا فى هذا الامر .

جامعة لكبار الموظفين

ينقل الدكتور حاطـوم عن مولتكه ما نصــه (والنص للدكتور حاطوم) : « ان التركي الذى يعرف القراءة والكتابة يعتبر عالما ... حتى ان كبار الموظفين كانــوا يطلبون الى آخـرين قراءة الرسائل الموجهة اليهم ... » (العربي عدد ٢٣٥ ص ٢/٥٧) .

هذا يدفعنا الى معرفة طريقة اعداد كبار موظفي الدولة العثمانية . قبل الفتح ، وليســمح لي الدكتور حاطوم ان اضرب أمثلة فيما بعد الفتح ايضا لأن مولتكه (كونت فون مولتكه ١٨٠٠ ـ ١٨٩١) كان مستشارا عسكريا فى استانبول من ١٨٣٥ م الى ١٨٣٩ م .

كان القصر الهمايونى (السلطاني) ينقسم الى ثلاثة اقسام : ١) الحرم : يعني عائلة السلطان وخادماتها وهو جزء مستقل . ٢) بيرون همايون ٣) اندرون همايون .

اندرون همايون ، عبارة عن جامعة خاصة داخل القصر ، ظلت اربعة قرون كمدرسة فنيــة تمد الدولة العثمانية بكبار الموظفين من العســكريين ومدنيين ، بل حتى ما يسمى اليوم بالفنانين ، اذ كان بالقصر فى وقت عمليـــة تفريب الدولة مدرسة موسيقية كبيرة تضارع دور الكونسرفتوار في البلاد الاوربية اليوم نظاما ودراسة .

وفى هذه المدرسة (مدرسة فى الاصطلاح العثماني تعني الجامعة ، بتعبير هذا الزمان) كان يؤتى بشبان اكثرهم من المدارس الســلطانية حيث يعدون اعدادا عسكريا تربويا مع منحهم رتبـة الضباط وبمرتب مجز . كانوا يدربون فى القصر على ادارة الدولة من ناحية ويتلقون دراسـات خاصة فى العلوم العسكرية والمواد العلميةوالدينية ويتدربون على السباحة والرماية والفروسية . وكانت اللغة العربية فى هذه المدرسة لغة اجبارية اذا رسب الطالب الضابط فيها يرسب تماما . اما أعلى مراحل هذه « المدرسة » تسمى (خاص اوده) يعني الغرفة الخاصة ولم يكن يقبل بهـا أكثر من (٤٠) طالبا فقط هم الصفوة حيث يعدون للمناصب الاكبر فى الدولة . مديرها ضابط برتبة وزير (مارشال) . وكان كل طالب من الغرفة الخاصة يتم تقديمه للسلطان شخصيا . وظلت هذه « المدرسة » معمولا بهـا حتى عهـد السلطان محمود الثاني عام ١٨٣٣ عندما تم تبنى الطريقة الاوربية فى اعداد الوزراء ، ومع ذلك فقد كان كل الضبـاط الكبار والموظفين الكبـار فى الدولة ، وحتى انهيار الدولة ، على درجة عالية

من المعرفة والثقافة وكان فيهم كثرة ملحوظة من العلماء .

أحمد جودت باشا (١٨٢٢م ـ ١٨٩٥م) وزير العدل وصاحب تاريخ جودت والتى اقترنت باسمه « مجلة الاحكام العدلية » وهى معروفة في تاريخ التشريع الاسلامى . الغازى احمد مختار باشا (١٨٣٩م ـ ١٩١٩م) الذى عمـل صـدرا أعظم ومندوبا فوق العادة فى مصر عام ١٨٩٢ م صاحب كتاب رياض المختار ، مرآت الميقات والادوار الذى طبع فى مصر عام ١٨٨٦ م وكتاب اصلاحات تقويم وطبعايضا فىمصر عام ١٨٩٠ وسرائر القرآنالذى وطبع أيضا فى مصر عام ١٨٩٠ وسرائر القرآن الذى باشا التونسي (١٨٢١ م) ذلك العبد الرقيق الذى اصبح الصدر الاعظم في عهد السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٨٧٨ م وصاحب « أقوم المسالك فى معرفة احوال المماليك » واسماعيل باشا (وفاته عام ١٩٢٠ م) صاحب الذيل على كشف الظنون والذى سماه « ايضاح المكنون فى ذيل كشـف الظنون » .

فوق ١٢ ألف جمل

وبما ان الدولة العثمانية دولة « عسكرية ـ جهادية » فلا بد ان يبدأ حديثنا فى هذه النقطة بالجانب العسكرى .

حتى عام ١٧٠٠ م ، كانت المدفعية العثمانية اقوى مدفعية فى العالم . فقد كان اعداد المدفعيين يتم باعداد متين الجذور . فى عهد الفاتح (١٤٣٢ ـ ١٤٨١ م) كانت الطوبخانة المتحركة (يعنى مصنع المدافع المتحرك) تنقل على ١٢٫٠٠٠ جمل وتتحرك من استانبول حتى البانيا ، ثم تقف امام مدينة مثل اشقودرة لكى تصب مدافع الحصـار الثقيلة . ومدافع فتح القسطنطينية لا تحتـاج الى الحديث عنها كتكنولوجيا متقدمة فى ذلـك الوقت . وكان هذا فى القرن الخامس عشر .

اما مدافع الهاون فقد استخدمت لاول مرة فى التاريخ فى عهد الفاتح ايضا .

وكان السلطان سليم الاول ، هو اول مـن استخدام المدافع غير ثابتة الاتجاه والتى يمكـن تحريكها بيسر . وكان ذلك في اوائل القرنالسادس عشر الميلادى مظهرا لدقة الاختراع العلمى والقدرة على استخدام التكنولوجيا الحديثة ـ بالنسبة لزمنه ـ وكانت القوات العثمانية قد انتصرت على القوات المملوكية في معركة الريدانية ، رهزمت المدفعيةالملوكية الثقيلةالثابتة الاتجاه والوضع. كان لدى القوات المملوكية المدافع الضخمة التى كــان يستخدمها بجانب المماليك خبــراء جاءوا خصيصـا لذلك مـن أوربـا . وهـذا ثابت فى سليمنامه لر .

اما عن الاسطول العثمانى ، فقد كان حتى عام ١٨٦٨ م هو الاسطول الثالث فى العالم قوة بعد الاسطولين الانكليزى ثم الفرنسي . وتشهد ترسانة السويس على دقة التنظيم العثمانى فىتنظيم اعداد الاسطول وسرعة تحركه من السويس الى مختلف الاماكن خاصة ما تحدثنا به وثيقة هى فرمان لوالى مصر بسرعة ارسال الاسطول لانقـاذ « الاهالى المسلمين » فى « البحرين » الواقعـة فى بصره كورفزى (خليج البصرة ـ الخليج العربى) عام ٩٨١هـ ١٥ جمادى الآخر مـن « الكفار » أى البرتغاليين الذين عاثوا فسادا هناك (انظر : دار محفوظات رئاسة الوزراء ، ديوان همايون مهمة دفترى رقم ٢٣ ص ٦٤ حكم ١٣٤ وجنكيزاورخونلو حبش ايالة) .

بمناسبة التنظيم الحضارى العثمانى بقــول الجنرال النمسوى كونت فارسكلى وهو القائـد الذى امضي حياته كلها فى محاربة العثمانيين . يقول عن التنظيم العثمانى ما يلى : « وصـل التنظيم الاقتصادى العثمانىالى درجة عالية بحيث لم يكن يعادلها نظير فى الحكومات المسيحية . من الممكن ايجاد موانع شتى فى القوانين العثمانية والنظمالاقتصادية التركية تمنع الاستغلال وتشجب كافة المساوىء » .

وعن دقة تنظيم الطرق البرية العثمانية ووفرة الخدمات بها يثنى هذا القائد على العثمانيين ، كما يمضي قائلا : « من اسباب القدرة على الحركة العسكرية الموفقة للجيش العثمانى هـو جـودة الاطعمة والعناية بالحيوانات،وهذه كلها اكثر دقة مما هى عليها عندنا ، واكثر جودة في التنظيم .. »

واذكر هنا الاستحكامات العسكرية وبراعـة العثمانيين فيها ، وقد بلغت متانتها ان الثـوار ما زالوا يستخدمون الاستحكامات والقلاع العثمانية الموجودة في اوجادين فى حربهم ضـد اثيوبيا . وهذه متبقية من العهد العثمانى بالصومال .

وفى الجغرافيا العثمانية : اذكر بيرى رئيس القائد البحرى العثمانى الذى ظهر فى اوائل القرن السادس عشر كمثال للجغرافية فى الحضـارة

ولـم يعرفـه سلاطين هـذه الدولـة .. والحرم
السلطان وبناتـه حيـث تقـوم الخادمات بخدمتهن

الحريم كما تصوره المصادر الاوروبية جيدة الخيال ..
يعنى المحرم أو ما لا ينبغي لاجنبى ان يراه اى زوجـة

العثمانية. وقد كتب بيرى‌رئيس عن كرويةالارض قبل رحلة ماجلان . ورسم خرائط لامريكا مع سواحل غرب افريقيا . رسم خرائط لشمال افريقية وسواحل البحر المتوسط الاخرى ، واتم ذلك بدقة قال عنها لاروش الفرنسي فى كتاب له صدر عام ١٩٦٣م : ان هذا أمر يعلو ويفوق كثيرا على علم الجغرافيا فى ذلك القرن وعلى علم الجغرافيا لدى الغربيين » .

في كتاب Chariots of the god لمؤلفه Erich Von Daniken حديث شيق عن خرائط القائد البحرى العثمانى بيرى رئيس : « سلمت خرائط بيرى رئيس فى السنة الجيوفيزيقية ١٩٥٧ الى الراهب الجزويتى لينهام المشرف على دار الارصاد في ويستون ورسام الخرائط فى اسطول الولايات‌المتحدة الامريكية . وقام لينهام‌بدراسات دقيقة لهذه الخرائط ثم اعلن انه وجدها صحيحة بدرجة مذهلة للعقل ، خاصة انها تظهر بوضوح اماكن لم تكن قد اكتشفت حتى تلك الايام . اما الجانب المذهل فى هذا الموضوع هو ظهور جبال انتاركتيكا التى تظهر بكل تفصيل فى‌هذه الخرائط، ذلك‌لان‌هذه الجبال لم يمكن اكتشافها الا بالاجهزة العاكسة للصوت عام ١٩٥٢ . قبل ذلك لم يكن احد يعرف انها موجودة وكانت انتاركتيكا مغطاة بالثلوج طوال عصور التاريخ » . ملحوظة : انتاركتيكا هى القارة السادسة التي تقع فى‌نصف الكرة الارضية الجنوبى ومساحتها ١٤٠١٠٧٦٣٧ كم٢) .

نفس الكتاب يستطرد فى الحديث عن الموضوع ذاته فيقول : « قدمت لنا الدراسات الاخيرة عن خرائط بيرى رئيس التي قام بها البروفيسور تشارلز هـ . هابكود وعالم الرياضيات و . استراشان ، معلومات رائعة تحبس الانفاس : بمقارنة صور الارض التي تم التقاطها من مركبات الفضاء ، وبالخرائط التي رسمها بيرى رئيس فى البدايات المبكرة للقرن السادس عشر ، اتضح ان بين الاثنين تشابها مذهلا . لقد توصل رجال العلم الى نفس نتائج صور اصول هذه الخرائط التى التقطت من ذلك الارتفاع الشاهق » .

وعلاج الامراض بالموسيقى

اما فى ساحة العلوم : فتشهد كتب شرف الدين الصابونجى الاماسي وهو جراح عثمانى عاش في عهد الفاتح‌بعلو مركزه فى‌دراسة الادوات‌الجراحية. ولدينا داود الانطاكى بدراساته فى المخ ، واخى جلبى وابحاثه فى المسالك البولية ، وعياشلى شعبان افندى (افندى كانت تطلق على العلميين) بدراساته فى امراض النساء والولادة والاطفال . وانشاء المجمع الطبى العثمانى في القرن الخامس عشر الميلادى دليل على اهتمام الحضارة العثمانية بالعلوم . وفى هذا القرن ايضا يخصص العالم العثمانى مؤمن السينوبى فى كتابه فى الطب ٢٥ بابا للامراض العقلية والنفسية والعصبية ، بل خصص العثمانيون مستشفيات خاصة لهذه الامراض ، فى الوقت الذى كانت اوربا فيه تحرق المريض عقليا او نفسيا أو عصبيا ، ذلك الاحراق الذى استمر حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، وذلك بحجة اخراج الشيطان من جسم المريض .

في ذلك الوقت ايضا استخدم الطبيب العثمانى الموسيقى لمعالجة الامراض . أن علاج المريض‌عقليا او انفسيا او عصبيا بالموسيقى لم يبدأ حتى فى الولايات المتحدة الامريكية الا عام ١٩٥٦ م .

يقول الدكتور Kraft-Ebing فى كتابه Traite clinique de psychiatrie (باريس ١٨٩٧) : « ان اوروبا قد تعلمت من العثمانيين معالجة المصابين بالامراض العقلية ».

ان اول كلية للطب عند العثمانيين قامت فى اواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، قبل عهد النهضة العثمانية فى عهد الفاتح بكثير ، وسموها بل اطلقوا عليها لفظة « دار الطب » .

وعن الخدمات الاجماعية كمظهر حضارى في الدولة العثمانية نقول ان الدولة لم تكن متكفلة بالخدمات الاجتماعية بل كانت تدخل في اختصاص الوقف وكان ركنا اساسيا فى اقتصاد الدولة العثمانية . وعن طريقه نشطت الحركة العلمية فى جوامع استانبول (الجامع فى النظام العثماني معماريا واداريا وحدة دينية وعلمية متكاملة فيها الجامع والمدرسة والمدارس الاقل من المدرسة الجامعة - والمكتبة ومدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيري العام والحمام ومدرسة الطب والمستشفى ..) كان صقوللى محمد باشا - على سبيل المثال - ينفق على الحركة العلمية في استانبول من دخل وقف ٢٠٠٠ قرية عثمانية فى تشيكوسلوفاكيا (وكانت تابعة للدولة العثمانية) واسعد افندى قاضي عسكر الروملي (يعني

البلقان) اوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات اللاتي يصلن الى سن الزواج . وكان لدى العثمانيين اوقات كثيرة ومتعددة . مثال آخر كانت هناك اوقاف خاصة بصرف مرتبات للعائلات المعوزة - غير الاكل - لان للاكل المجانى اوقافا عامة اخرى تسمى (عمارت وقفى) اى وقف المطاعم الخيرية . وكانت الـ (عمارت) تقدم اكلا مجانيا لعدد يبلغ ٣٠٠٠٠ شخص يوميا مجانا ، كان مثل هذا فى كل الولايات .

(عمارت) السليمانية أى المطعم الخيري الملحق بجامع السليمانية . بلغت ميزانيته عام ١٥٨٦ م ما يعادل (١٠) عشرة ملايين دولار امريكي الا قليلا (مايعادل ٢٣٨ مليون ليرة تركية) . ان‌وقفية السليمانية دليل على عظمة حضارة العثمانيين .

وبالطبع كان رصف الطرق و (كروان سرابي) أى الفنادق المقامة على الطرق البرية فى كل ارجاء الامبراطورية العثمانية بما فى ذلك المأكل والمشرب والمبيت كان مجانا يصرف عليه من الاوقاف .

تلك لمحة عن الحضارة العثمانية حتى أيام الفتح العثماني للشام يعني من عام ١٢٩٩ م الى عام ١٥١٦ م . مع امثلة طفيفة عامة . وحيث ان الدكتور نور الدين حاطوم قد اراد الوقوف عند هذا الحد عندما ذكر .. ايام الفتح « فسأقف عند هذا الحد ولا اتجاوزه . وان كان لى تعليق طفيف عام .

عن نقل الفنيين المصريين

بعد ذلك - أى بعد الفتح - سيطر الفكرالعربي على مسار الدولة العثمانية . اصبحت استانبول هي مركز الثقل في الدولة بشكلها الجديد فانتقلت - بعد الفتح - مجموعات من العلماء والمتخصصين في الميادين المختلفة الى استانبول .

لابد ان يخطر ببال القارىء ان سليما الاول نقل المعماريين المصريين والبنائين المصريين اصحاب الخبرة الى استانبول للافادة منهم . وكتب‌التراجم العثمانية - بعد الفتح - لاتخلو من القاب : الفاسي ، المصرى ، اليمني ، الازهرى ، المكى الحلبي ، المدني الى آخره .

نرجع لفكرة العاصمة . اننا نلاحظ ان الذين يجدون فى انفسهم قدرة تميزهم عن الاخرين يتجهون الى العاصمة لابراز مواهبهم . من رابغ الى مكة ومن الاسكندرية الى القاهرة ومن وهران الى الجزائر العاصمة ، بل اننا نجد اليوم من يهاجر من بيروت او دمشق او حلب الى القاهرة لابراز موهبة قد يتصورها او هي بالفعل موجودة فيه . نفس هذا حدث عند انتقال مركز الثقل من دمشق ومن القاهرة الى استانبول منذ عهد سليم الاول .

ورغم ذلك ، فان اسماء عربية كثيرة سيطرت على مقدرات الدولة العثمانية وليس فقط فى امورها العادية . اقرب مثال‌لذلك محمودشوكت باشا العراقي البغدادى الذى تحرك على رأس جيش الحركة من سالونيك قائدا لجيش ضم مصطفى كمال (اتاتورك) ليخلع ويعزل السلطان الخليفة التركي العثماني عبد الحميد الثاني من على العرش وبذلك افسح الطريق لرجال الاتحاد والترقى لحكم الدولة العثمانية .

سيطرة العربية على الثقافة

كان للعثمانيين من الثقافة الراقية والادب‌الاخاذ ما جعل الترجمة منها الى اللغات الاوروبية ملحوظة . (انظر تاريخ الادب التركي للدكتور حسين مجيب المصرى ، القاهرة ١٩٥٦) وكانت اللغة العربية سواء قبل الفتح العثماني للبلاد العربية او بعده هي لغة الثقافة والادب والعلوم عند العثمانيين . كتبوا بها كل شيء من كتب الفقه او الفتاوى او الدين ، اصطلاحات العلوم العثمانية كانت كلها عربية. كما كتبوا بها التراجم مثل الشقائق النعمانية لطاشكبرى زاده ، وكتبوا بها التاريخ مثل جامع الدول لمنجم باشى احمد دده وتاريخ (العلم الزاخر فى علوم الاوائل والاواخر) للعالم التركي جنابي ،، وكتبوا بها المقامات مثل مقامات عيدى .

وقد قرر العثمانيون اللغة العربية لغة اولى فى جميع المعاهد التعليمية من اولها الى آخرها ودرسوا بهاكافة العلوم. اهمل الاتراك‌العثمانيون لغتهم التركية ، والفوا الكتب المدرسية وغير المدرسية بما في ذلك صرف ونحو اللغة العربية - بالعربية وكتبوا بها الرسائل . (انظر فهارس مخطوطات السليمانية) . واشتقوا من العربية اصطلاحات علمية كثيرة فى حين اننا الان نشتق هذه المصطلحات من اوربا .

الغريب فى الامر ، ان حركة تنقية اللغة التركية من الكلمات والمصطلحات العربية ، وقد بدأت عقب الحركة الكمالية ، تنشط هذه الايام . ان

حديث المعاصرين الاتراك عن (العمل على التخلص من سيطرة اللغة العربية على اللغة التركية) لا يخلو منه حديث فى الاذاعة ولا كتب اللغة التركية في المدارس . الاتراك المحدثون يتهمون العثمانيين ويتهمون الدولة العثمانية بأنها اهملت (لغتنا التركية الجميلة على حساب اللغة العربية) وبان العثمانيين اسهموا في اثراء الثقافة العربية وكان (الاولى ان يهتموا بتطوير ثقافتنا التركية) وبين الاتراك الان تدور مناقشات وتصدر كتب ما بين مدافع عن تأثير اللغة العربية والثقافة العربية فى اللغة التركية وآدابها وبين مهاجم وينادي بان ينتبه الاتراك الى لغتهم الذاتية . ويعملوا على كسب اشتقاقات جديدة لها من اصول قديمة ونبذ ما فى التركية من لفظ ومصطلح عربي ، وفارسي . (لاحظ جهود المجمع اللغوى التركي الذى اقيم خصيصا لهذا الغرض) .

العرب والمسلمون والعثمانيون

حتى فى وقت انهيار الدولة العثمانية كان العالم العربي والعالم الاسلامي متعاطفا مع العثمانيين . اطلقوا اسماء ابطالهم على اطفالهم. عبد الحميد نسبة الى السلطان عبد الحميد الثاني ، عثمان نسبة الى الغازي عثمان باشا بطل بلونه ، انور نسبة الى انور باشا احد اعمدة الاتحاد والترقي وكذلك طلعت وزير داخلية الاتحاد والترقي والصدر الاعظم .

وفي حرب الاستقلال التركية :

١ ــ قام عثمان خوجة رئيس جمهورية بخاري في تركستان الشرقية عام ١٩١٨ بجمع اعانة للشعب التركي من شعب تركستان الشرقية بلغت خمسة ملايين جنيه ذهبا (= مائة مليون روبل) صادر منها لينين عشرة ملاين وتم ارسال التسعين مليونا الباقية الى انقرة .

٢ ــ وارسلت الهند الى انقرة اعانة مالية قدرها نصف مليون جنيه ذهبا .

٣ ــ وارسلت مصر الى انقرة ــ فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى ٩٠٠,٠٠٠ جنيه ذهبا

وكان ذلك تعاطفا مع دولة عريقة ذات حضارة راقية خدمت التراث الانساني والاسلامي وصانت البلاد العربية من اخطار فادحة .

اود ان اضيف الى دعوة الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى الى اعادة « تقييم » الحكم العثماني فى البلاد العربية الى فهم طبيعة العثمانيين كدولة والى معرفة حضارة العثمانيين وتشريعاتهم فى البلاد العربية ، والقيام ــ ان امكن عالميا ــ بنشر الوثائق العثمانية والمخطوطات العثمانية عن العهد العثماني في البلاد العربية ، وبعدها ستكون دعوة الدكتور عبد الرحيم مصطفى امرا علميا بالغ الخطورة ، ضروريا حتى لفهم انفسنا وجذور مشاكلنا المعاصرة . ●●

استانبول ــ **محمد حرب عبد الحميد**

ان « العربي » تضيف الدعوة الى « فتح ملف الامبراطورية العثمانية » الى دعواتها السابقة الى طرح القضايا الفكرية التي يجب مناقشتها خصوصا مايتعلق بالشعب العربي والتاريخ الاسلامي .

ونحن ندعو الى المزيد . وفي هذا المجال لم يجب الاستاذ الكاتب عن اسئلة جوهرية يطرحها المثقف المعاصر عن الدولة العثمانية ، مثل : الى اى حد أخذت الامبراطورية العثمانية بالقيم والمثل الاسلامية فى سياساتها نحو الرعية . والى اى حد عاملت المسلمين كشعب واحد خلافته فى القسطنطينية ، او كشعوب محتلة بواسطة امبراطورية قومية .

وما هو الرد على من يقولون ان الامبراطورية العثمانية اعطت العلم « قوة » ولكنها لم تقدم فكراولا فقها ولا اجتهادا ولا فنا بمعناه الواسع . وماذا كان حظ اللغة العربية فى ظل الحكم ؟